

الصهيونية فكرة ودولة في كتابات أحد هاعام

د. أمين عبد الله محمود *

جامعة الكويت

Abstract

The aim of this study is to discuss the various aspects of political and intellectual thought as expressed and presented through the writings of Ahad Ha'am. Ahad Ha'am's contribution to the debate about the nature of zionism laid the foundation to what became identified as the spiritual zionism. This new zionist dimension bacame as an antithesis to Herzl's political zionism.

In examining Ahad Ha'am's writings, we notice that the writer was able to link the so-called modern Jewish national thought with the main streams of 19th and 20th centuries western political & social thought. The writier's aim of this link was to indentify the main problems of modern Jewish identity.

What adds more importance to Ahad Ha'am's views today was his ability to confront practical proplems with a moral and theortical dimension.

In dealing with this study, the author has chosen a number of Ahad Ha'am's basic writings in which his major intellectual contributions can be best understood.

ملخص

تتناول هذه الدراسة الاسهام الذي قدمه أحد هاعام في الجدل الذي دار حول الدولة اليهودية والطبيعة الصهيونية. وقد اتفق على تسمية صهيونية أحد هاعام بالصهيونية الروحية وهي نقض لصهيونية هرتزل السياسية. وتحاول الدراسة من خلال تعاملها مع كتابات أحد هاعام أن تبرز الحلول الجديدة التي قدمها هذا المفكر الصهيوني للمسألة اليهودية. فالمسألة اليهودية في نظره لا يمكن حلها ضمن اطار الصهيونية السياسية، وانما ضمن إطار حضاري روحي اخلاقي. وهي ليست مشكلة اليهود كما صورها الصهاينة السياسيون وانما مشكلة اليهودية، والدولة التي رأى أحد هاعام امكانية ايجادها في النهاية كدولة يهودية لا كدولة لليهود كما طرحها هرتزل. والدولة بالنسبة له ليست غاية في حد ذاتها وانما لا تعدو كونها الاساس الضروري للتعبير الروحي عن الروح القومية. وقد تمكن أحد هاعام من تحديد العديد من المشكلات العملية التي أدت الى تعكير مسار تطور الحركة الصهيونية، وتوصل في النهاية الى وضع استراتيجية واقعية ذات بعد روحي اخلاقي يعارض من خلالها استراتيجية هرتزل وغيره من المفكرين الصهاينة التي تهدف الى انشاء دولة لليهود بأية طريقة وبأسرع ما يمكن. فالدولة اليهودية لم تكن ضمن أولويات أحدها عام في تلك المرحلة، اذ كان يقول ان «اقامة دولة يهودية بعد تسعمائة عام أفضل من اقامة دولة يهودية بعد خمسين عاما على أرضية من الرمال المتحركة».

يعزو الكثير من الباحثين اشتداد أود الصهيونية وازدهارها الى الصدمة التي أحدثتها الاضطرابات التي شهدتها روسيا القيصرية عام ١٨٨١ وما ترتب عليها من الارتداد المفاجيء للعديد من اليهود عن الاتجاهات العلمانية واعتناقهم الدعوة الصهيونية. ولعله ليس من قبيل الصدفة أن تجيء دعوة المفكرين اليهود الروس : ليوبنسكي وليمينبلوم وسمولينسكين وبن يهودا وغيرهم الى الصهيونية، بما تضمنته من حث لليهود الروس على الهجرة، في الوقت الذي بدأت فيه الطبقة الوسطى الروسية تأخذ مكانها وتقتلع اليهود من حرفهم ومهنتهم، خاصة في مجال التجارة، مما جعل اليهود مهئين للهجرة من روسيا والبحث عن مكان آخر. ومما قاله ليلينبلوم في هذا الصدد : «... ان أمم أوروبا اليوم أصبحت تجيد فنون التجارة كاليهود، لذا فهم ليسوا بحاجة إلينا... فالى أين سنهرب؟...» (١)

وأخذ العديد من الزعماء اليهود يدعون الى توجيه المهاجرين اليهود الروس صوب فلسطين ليقموا مستوطناتهم هناك كبداية لاقامة دولة يهودية فيها، مبدين في الوقت نفسه معارضتهم الشديدة لهجرة اليهود الى أوروبا الغربية وأمريكا، بدعوى أن في ذلك مضية للجهد حيث لا فائدة ترجى من ورائها. ووضع هرتزل فيما بعد أسس الصهيونية السياسية داعيا الى تنفيذ الهجرات اليهودية ضمن مخطط استيطاني واسع وعلمي، يتم بمساعدة إحدى الدول الأوروبية الكبرى، ويمهد السبيل لاقامة دولة يهودية.

غير أن الفكر الصهيوني الذي تبناه هرتزل أخذ يطرح الحلول السياسية والدبلوماسية للمسألة اليهودية دون أن يتعرض من قريب أو بعيد للقضايا الروحية والاخلاقية لهذه المسألة. وقد أدى ذلك الى ظهور دعوة صهيونية جديدة أطلق عليها «الصهيونية الروحية» وضع أسسها المفكر الصهيوني أشر غينزبرغ Asher Ginsberg الملقب باسم أحد هاعام (٢) Ahad Ha-Am.

(١) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (الكويت : عالم المعرفة، ١٩٨٤)، ص ١٢٦، وانظر أيضاً : ابراهام ليون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية (بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٠)، ص ٢٦ وانظر أيضاً :

Salo Baron, A Social and Religious History of the Jews (New York: Columbia University Press, 1952), Vol. 5, pp. 84-6.

(٢) ومعناها بالعبرية : واحد من الناس.

نشأة أحد هاعام:

بدأ أحد هاعام (١٨٥٦ - ١٩٢٧) حياته مسكيلة (٣) على غرار ليو بنسكير وسمولينسكين. فقد ولد في بلدة سكفيرا Skvira الأوكرانية الواقعة قرب كييف والتي كان يقطنها غالبية يهودية. انتقلت أسرته وهو في الثانية عشرة من عمره إلى العزلة في إحدى الضياع قرب برد يشيف، كان والده قد استأجرها من أحد أفراد الاسر الروسية النبيلة، وأخذ يفلحها باستمرار مدة ثماني عشرة سنة حتى عام ١٨٨٦، عندما حال تنفيذ قوانين أيار (٤) (مايو) دون تجديد أجرة الأرض. كان والده استثناء لزمته وطبقته ميسور الحال، بحيث استمرت أسرة غينزبرغ تعيش في مستوى يماثل مستوى حياة النبلاء الروس. ولكن الوالد كان شخصية تقليدية متمسكا بأهداب دينه حاسيدي (٥) الميول، يطمح إلى أن يربي ابنه تربية دينية بعيدة عن كل ما هو دنيوي وعلماني (٦).

ولم يمض وقت طويل حتى حقق أحد هاعام مكانة علمية مرموقة، لا سيما في الدراسات التلمودية. ولكنه أثر الانطلاق من نطاق التقاليد المتزمتة، واستطاع تعلم اللغة الروسية بالإضافة إلى عدد من اللغات الأوروبية الأخرى بما في ذلك آداب تلك اللغات. وقد قام أيضا بدراسة تاريخ وفلسفة القوانين المعاصرة. وكان من أكثر كتاب القرن الماضي إنتاجاً في النهضة العبرية التي قامت في روسيا. وكان يطلق عليه لقب «أمير البيان

(٣) مسكيل كلمة عبرية جمعها مسكيليم تعني داعية حركة الاستنارة. ومعظم دعاة هذه الحركة من تلاميذ موسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦). ويعتبر مندلسون من دعاة الاندماج اليهودي في الحضارة الغربية. وقد قام بترجمة العهد القديم إلى الألمانية بالإضافة إلى قيامه بترجمة المؤلفات الألمانية إلى العبرية وذلك كله بهدف بناء جسور ثقافية بين اليهود والألمان للتهيئة لعملية الاندماج بينهما، وقد طالب بالقضاء على الجيتو العقلي الذي فرضه اليهود حول أنفسهم مما أدى إلى عزلهم عن المجتمعات الإنسانية الأخرى.

(٤) وهي قوانين أصدرها الأسكندر الثالث في الثالث من أيار عام ١٨٨٢، وبمقتضاها تم حظر الإقامة لليهود في المناطق الريفية، ومنع أبنائهم من دخول المدارس الحكومية، كما تم حظر الإقامة لليهود في العاصمة موسكو. انظر:

Howard A. Sachar, The Course of Modern Jewish History (New York: Alfred A. Knopf, Inc., 1985), pp. 243 - 6.

(٥) الحاسيدية حركة صوفية ثورية ظهرت في بولندا في القرن الثامن عشر وكان غالبية أعضائها من العمال اليهود. انظر:

Sachar, pp. 74 - 8

(٦) David Vital, The Origins of Zionism (Oxford: Oxford University Press 1975.) p. 189

العبري» (٧) في عصره. وقد ساهم أكثر من أي كاتب آخر في نشوء النثر العبري الحديث وتحريره من قيود لغة المسكلاه (٨) شبه التوراتية، ولم يكن ينافسه في تأثيره على الأدب العبري الحديث أحد سوى حاييم نحمانيال (٩) H.N. Bialek. تألفت كتاباته من أربعة مجلدات من المقالات والتراجم والسير (١٠). وهو أول من أدخل العناصر الوضعية أو اليقينية Positivism في الكتابة العبرية المنثورة التي كانت لا تزال متأثرة إلى حد بعيد باللمسات الانفعالية للرومانسية المحدثه. وبالرغم من ذلك فإن حياته التكوينية ظلت تتسم بالغربة المزدوجة: عن الروس نتيجة هويته اليهودية الثابتة وعن اليهود نتيجة رفضه العصري للتقاليد الدينية.

نجح أحد هاعام في التعبير بوضوح عن المشكلات العملية التي توقع أن يواجهها الصهاينة بعد تأسيس دولتهم في فلسطين. فبينما رأى الصهاينة العمليون بعض المشكلات التي تبرز من جراء توطين المهاجرين اليهود في فلسطين وإقامة دولة مستقلة لهم فيها، إلا أن أحد هاعام قد تعرف وعرف المشكلات التي ستصبح «أهم القضايا المصيرية لإسرائيل بعد إقامتها» (١١). ومن هنا فإن ارتباط كثير من ملاحظاته بالأمور المعاصرة الآن يعتبر أمراً أكثر أهمية بكثير من أولئك الذين انتهت الصهيونية بالنسبة اليهم يوم ١٥ أيار عام ١٩٤٨ (١٢).

(٧) Ibid., p. 190 ، انظر أيضاً Encyclopedia Judaica (Jerusalem: Keter Publishing House, Ltd., 1972), Vol. I, p. 248

(٨) المسكلاه كلمة عبرية تعني حركة الاستنارة اليهودية. ظهرت هذه الحركة في منتصف القرن الثامن عشر واستمرت حتى حوالي عام ١٨٨٠. وكانت تدعو اليهود إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها والتمسك باليهودية كدين فقط. وقد ازدهرت حركة المسكلاه في ألمانيا وامتدت بعد ذلك إلى دول أوروبا الأخرى. لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية (القاهرة: الاهرام، ١٩٧٥) ص ٧٢-٧٤.

(٩) بيبالك شاعر عبري وصهيوني عاش في الفترة بين عامي ١٨٧٣-١٩٣٤. نشأ وعاش في روسيا حتى عام ١٩٢٤ حين هاجر إلى فلسطين. تولى رئاسة تحرير القسم الأدبي في مجلة هاشيلوخ التي كان يصدرها أحد هاعام. اشترك في تأليف القاموس العبري للمصطلحات الفنية وترجم العديد من الكتب العالمية (دون كيشوت، وليم تيل، شكسبير) إلى اللغة العبرية.

(١٠) Vital, The Origins of zionism, p. 188

(١١) Shlomo Avineri, The Making of Modern Zionism (New York: Basic Books Inc., 1981), p.114

(١٢) وهو يوم إعلان تأسيس «دولة إسرائيل». انظر: Ibid ، وانظر أيضاً:

Robert Seltzer, Jewish People, Jewish Thought (New York: Macmillan, 1980), p. 698

بيد أن النقاش هنا سيقصر على اسهام أحد هاعام في الجدل الذي دار حول الدولة اليهودية والطبيعة الصهيونية. وقد اصطلح على تسمية صهيونية أحد هاعام بالصهيونية الروحية وهي نقيض لصهيونية هرتزل السياسية.

أحد هاعام والفكرة الصهيونية:

اتخذ أحد هاعام موقفاً فكرياً مخالفاً لموقف هرتزل منذ البداية. كما أعلن رفضه لغايات الصهيونية السياسية وأساليبها، ورأى أنها لا تتلاءم والتشخيص الصحيح لامراض الصهيونية. واتهم هرتزل زعيم الصهيونية السياسية بالسطحية في التفكير والافتقار الى الرصانة، واستشهد على ذلك من خلال ما أورده هرتزل من معلومات خاطئة ومضللة حول انجازاته السياسية. وكان مما قاله أحد هاعام في هذا الصدد: «لقد تحدثت لبرهة وجيزة (مع هرتزل) بعد الاجتماع (المؤتمر الصهيوني الاول في بازل) وتوصلت الى نتيجة مفادها أن جميع اشاراته الى ما قام به من أعمال في القسطنطينية، كانت كلها عديمة القيمة، اذ لم تعط لهرتزل أية وعود. وكما يبدو فإن الحكومة العثمانية ستنقض علينا بعنف أكثر من ذي قبل» (١٣). وأشار أحد هاعام الى أن هرتزل نفسه «حذر من استحالة التوصل الى اتفاق مع الدولة العثمانية — وأن المسألة الشرقية قد تظل رغم كل التوقعات مستعصية على الحل. وعلى ذلك فإن على الامة أن تتحمل وتنتظر وربما لاجيال». وتساءل أحد هاعام قائلاً: «أليس من الافضل لليهود لو أنهم استخدموا وقتهم في العمل في أرض اسرائيل مهما كان هذا العمل محدوداً بدلاً من ترك مهمة اصلاح البلاد للآخرين؟» (١٤).

وكان أحد هاعام يخالف الرأي القائل أن المسألة اليهودية يكمن حلها ضمن اطار الصهيونية السياسية، فهي في نظره مشكلة حضارية روحية أخلاقية. وقد جاء في خطاب ألقاه في منسك عام ١٩٠٢ قوله: «ثمة صهاينة سياسيون لا يعلقون أية أهمية على الجانب الروحي من الحركة بينما يوجد على الطرف الآخر صهاينة رويون يتبرمون بالعمل السياسي في شكله الحالي... أما الأمر كذلك فإنه لا مندوحة لنا عن اقامة منظمة خاصة

(١٣) David Vital, Zionism: The Formative Years (Oxford: Oxford University Press, 1982), p. 25

(١٤) Ahad-Ha' Am, "The Congress and its Creator", Ha-Shilo'ah (January 1898), as quoted in Vital, Zionism, pp. 28-9

تشمل جميع أولئك الذين يدركون أهمية الثقافة اليهودية و يرغبون في نموها وتطورها بحرية سواء كان هؤلاء من الصهاينة الذين يعلنون عن صهيونيتهم أم لا. وعلى هذه المنظمة أن تركز اهتمامها على مشكلتها الخاصة المحددة ليس الا، وأن لا تكون خاضعة للمنظمة السياسية المرافقة أو معتمدة عليها» (١٥). وكان أحد هاعام يعتقد بأن اليهودية، وليس اليهود، هي التي يجب أن يتركز الاهتمام عليها وتكون محور التفكير القومي اليهودي، لضمان بقاء الروح والثقافة اليهوديتين في العالم الحديث (١٦). وقد حذر من مغبة خروج اليهود من عزلتهم واندماجهم في مجتمع الاغيار، حيث أن في ذلك تهديدا وضياعا للروح اليهودية والتراث الحضاري اليهودي. وكان أحد هاعام في موقفه هذا يختلف عن موقف هرتزل الذي وثق بعالم الاغيار ودعا الى تعميق التعاون معه. فقد كان أحد هاعام ينظر الى العالم من حوله على أنه عالم عداوة ثابتة متوارثة (١٧).

وكان أحد هاعام يرى أن مشروع هرتزل ضرب من الجنون. اذ لا يعقل أبداً أن يكون باستطاعة ملايين اليهود دخول البلاد واستيطانها بصورة مرضية حتى وان تأسست الدولة وسمح بالدخول اليها. ولو قدر لهم الدخول لسارعوا الى «ادارة ظهورهم والهروب من دولتهم ومن أمام أكثر الاعداء هولاً وهو الجوع» (١٨). أما الضمانات الدولية السياسية والقانونية فلن يكون لها جدوى. «ان الحقيقة مرة ولكن الحقيقة على مراتها أفضل من الاوهام. وعلمنا أن نقرر أن تجميع كل المنفيين أمر خارج عن الطبيعة. قد تتاح لنا دولة يهودية اذا ما سارت الامور في مجراها الطبيعي، وقد يصبح اليهود على قدر من الكثرة والقوة

Leon Simon, *Ahad Ha - Am, Am, Asher Ginzberg: A Biography*. (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1960). pp. 100 - 1

Arther Hertzberg, *The Zionist Idea* (New York: Atheneum, 1970) p. 51 (١٦)

(١٧) يتفق ليوبنسكي في تحليله حول هذه النقطة مع ما ذهب اليه أحد هاعام. فقد توصل ليوبنسكي الى أن لا جدوى من وراء أي عمل أو كفاح ضد معاداة الشعوب لليهود (الاسامية). وقد عبر عن ذلك بقوله: «بعد الانتهاء من تحليل الملح المرضي من اليهود كنوع من الديونوباثيا Demonopathy (الخوف المرضي من الجن أو الشياطين) الموروثة التي يختص بها الجنس البشري وبعد تصوير معاداة السامية على أنها ظاهرة تستند الى شذوذ موروث للعقل البشري، علينا أن نستخلص النتيجة الهامة التالية: لا يمكن للصراع ضد هذه الكراهية الا أن يكون عبثاً مثله في ذلك مثل أي صراع ضد الميول الموروثة». وهكذا يتضح أن ليوبنسكي يعتبر أن (الاسامية) موجودة طالما كان الانسان موجودا (من خصائص الطبيعة البشرية غير اليهودية) وهي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان طالما أن هنالك يهودا في المجتمعات البشرية. انظر: محمود، ص ١١١.

Vital, *Zionism*, p. 26 (١٨)

بحيث يملأون البلد، ولكن حتى في هذه الحالة فإن السواد الأعظم من الأمة سيبقى مشتتا ومتفرقا في الاقطار الأجنبية» (١٦). وفي رأي أحد هاعام أن دولة كهذه ستكون مفتقرة الى الأساس القوي وستكون دون ثقافة ودون جذور، وربما تثبت الأيام أنها ليست قابلة للبقاء لا سيما وأن البنية التحتية الاجتماعية الثقافية شرط ضروري للحياة السياسية.

واستطرد أحد هاعام في تحليلاته مشيرا الى أنه بصرف النظر عما تؤول اليه الأمور فإن مشكلات اليهود المادية وفقدهم والضغط المشروع وغير المشروع الذي وقعوا تحت وطأته لن يتأثر تأثيراً يذكر بتأسيس دولة أو حتى بالصهيونية بصورة عامة. وبالإضافة الى ذلك فإنه في حين لم يكن باستطاعة الصهيونية أن تقدم لليهود شيئاً يؤبه له من ناحية مادية، فإنها كانت قادرة على تقديم الكثير لهم من ناحية معنوية. لكنها ليست الصهيونية السياسية وليست دولة اليهود في حد ذاتها. وحتى لو أمكن التخلص من جميع العقبات وقامت الدولة في أفضل الظروف التي يمكن تصورها، فإنها ستكون انجازاً هزيعاً والعوبة في يد جيرانها الاقوياء وغير قادرة على البقاء الا عن طريق المناورات الدبلوماسية والاستخذاء الابدي أمام كل من ابتسم له الحظ (٢٠). ولن تكون هذه الدولة قادرة على منح اليهود الشعور بالاستقرار والطمأنينة كما أن «الثقافة القومية التي نستطيع الوصول الى أهدافنا عن طريقها لن تنغرس في دولتنا ولن تكون أساساً لها. وهكذا فإننا سنكون عندئذ فعلاً — وأكثر بكثير مما نحن عليه الآن — أمة صغيرة تافهة مستعبدة» (٢١).

وفي مناسبة أخرى افترض أحد هاعام تجاوزاً أن الحركة الصهيونية قد بلغت هدفها، وأن دولة يهودية أقيمت في فلسطين، وأن بمقدورها استيعاب موجة أثر أخرى من المهاجرين اليهود، فتساءل فيما اذا كان انشاء دولة يهودية كهذه يعتبر حلاً حقيقياً للمشكلة اليهودية بجمعها؟ وهل يستطيع جميع اليهود في العالم — وكان عددهم آنذاك حوالي عشرة ملايين — أن يهاجروا فوراً الى «أرض اسرائيل» كي يتخلصوا من معاناتهم الاقتصادية والروحية؟ كما افترض أحد هاعام من ناحية أخرى أن اقامة دولة يهودية لا يعني تجميعاً فورياً وشاملاً

(١٩) "The Jews' State and the Jew's Affliction", Ha - Shilo'ah (January: 1898), as quoted in Ibid.

Ibid. (٢٠)

Nationalism and the Jewish Ethic: Basic Writings of Ahad Ha - Am (New York: Schocken Books, (٢١) Inc., 1962), pp. 80 - 1

لليهود في المنفى، بل سيعني في البداية الاقتصار «على توطين جزء صغير من شعبنا في فلسطين» وتساءل عندها عن كيفية حل المشكلة المادية للجماهير اليهودية في أراضي الشتات (٢٢). ورأى أحد هاعام أن المشكلة الاقتصادية لن تحل حلاً شاملاً إلا لجزء من الناس هم الذين سيهاجرون إلى الدولة اليهودية أما أولئك الذين سيبقون في أرض الشتات، خلال المراحل الأولى من العملية (التي قد تستغرق أجيالاً)، فإن مشكلاتهم الاقتصادية لن تحل ولا يمكن أن تحل بمجرد إقامة دولة يهودية. كما أن مصيرهم الاقتصادي والاجتماعي سيظل مرتبطاً بظروف البلاد التي يقيمون بها. ولما كانت الدولة اليهودية ستعجز عن حل المشكلة الاقتصادية لتلك الجماهير اليهودية التي ستظل ولومؤقتاً خارج حدود هذه الدولة، فإن إسهامها الوحيد في حل بعض مشكلاتها لا بد وأن يكون في المجالات الروحية والثقافية. ولذلك فإن المشكلة الرئيسية التي على الصهيونية مواجهتها لا تقتصر على كيفية إقامة دولة يهودية، بل حتى لو سلمنا بأن دولة يهودية ستظهر في نهاية الأمر، فإنه يبقى محتملاً على الصهيونية أن تسأل نفسها كيف ستساعد في حل معضلات الكروب الروحية والمشكلات للأكثرية الساحقة من «أبناء الشعب اليهودي» الذين سيظلون مقيمين طيلة المستقبل المنظور خارج «أرض إسرائيل» (٢٣).

أما بالنسبة للمشكلة الروحية اليهودية فإنها — في رأي أحد هاعام — تظهر في شكلين مختلفين: مشكلة روحية شرقية أي خاصة بيهود أوروبا الشرقية، ومشكلة روحية غربية خاصة باليهود الغربيين. وتوصل أحد هاعام إلى أنه باستطاعة الصهيونية حل المشكلة اليهودية الغربية بصورة أسرع من حلها للمشكلة الشرقية. وفي معرض تحليله لموقف اليهود الغربيين، أشار أحد هاعام إلى أن هذه الفئة التي تركت حياة الجيتو بلغت مرحلة اليأس، إذ أنها كانت تشعر من ناحية بأنها أصبحت غير مقبولة لدى الشعوب التي كانت تعيش بين ظهرانيها، وأخذت تدرك من ناحية أخرى أن حياة الجيتو أصبحت لا تتحقق آمالها بعد أن تعودت على حياة اجتماعية وثقافية وسياسية في مجتمعات «الاغيار». كما اتضح لأحد

(٢٢) Ibid. p. 73

(٢٣) Robert Alter, After the Tradition: (Avineri, p. 114) ; انظر أيضاً:

Essays on Modern Jewish Writings (New York: E.P. Dutton & Co., Inc., 1971), p. 79; Simon Dubnow, Nationalism and History: Essays on Old and Judaism (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1958), p. 73

هاعام أن اليهود الغربيين بادروا الى اعتناق الصهيونية لأن «الانسان اليهودي عندما لا يجد مكانه في المجتمعات الغربية ولا يستطيع من ناحية أخرى تحقيق رغباته في الجيتو، فهو يفكر تلقائياً في الدولة اليهودية التي يستطيع فيها أن يحقق الحياة السياسية والاجتماعية والشفافية» (٢٤). وحتى لو لم يتمكن الجميع من الاستقرار في تلك الدولة فإن مجرد وجود الدولة يتيح المجال لايجاد حل لمشكلة «هويتهم القومية» و يغير نظرة الامم الاخرى لليهود، بحيث يعاملونهم «باحترام» وليس «كعبيد مبتذلين يخدمون على موائد الآخرين» (٢٥). وان مجرد الالتصاق بفكرة دولة كهذه ومحاولة تحقيقها سيعوضهم عن افتقارهم للاندماج في الثقافة الوطنية للمجتمع الذي يحيط بهم (٢٦).

أما في أوروبا الشرقية فالأمر هناك كان مختلفاً. لقد كانت المعاناة اليهودية فيها — كما رآها أحد هاعام — معاناة جماعية وليست فردية، إذ أن الأمر الذي يحوطه الشك هنا ليست الهوية اليهودية لليهود كأفراد بل وجود مجتمع بأكمله. ان ما حصل في أوروبا الشرقية — على حد تعبير أحد هاعام — ليس خروج اليهود من الجيتو فحسب، وإنما الأهم من ذلك خروج اليهودية في حد ذاتها أيضاً. لقد تمكنت اليهودية، داخل حياة الجيتو التقليدية، من الابقاء على نفسها ضمن نطاق مجتمع مغلق، وبذلك تم احداث توازن بين المجتمعين اليهودي وغير اليهودي يمكن القول بأنه قائم على العزلة والانفصال. لكن التطور الثقافي الحديث الذي شمل جميع شعوب أوروبا الشرقية أزال هذه العزلة اليهودية دون أن يعترف في الوقت نفسه للجماهير اليهودية العريضة بأنها مجتمع ذو قومية ناشئة. «فالحضارة»، في قول أحد هاعام: «كانت تتميز آنذاك بالروح القومية، وعلى الغريب الذي يريد الاندماج في مثل تلك الحضارة التخلي عن فرديته والانغماس في التيار السائد» (٢٧).

وقد دفع هذا التحدي يهود شرق أوروبا الى أن يصوغوا لأنفسهم بؤرة جديدة للهوية. ووجد أحد هاعام أن هذه البؤرة الجديدة التي توصلت لها هذه الفئة من اليهود ما هي الا المركز التاريخي الذي يتمكن الفرد فيه أن يحيا حياة متطورة تطوراً طبيعياً، تتيح له المجال

Avineri, p. 265 (٢٤)

Nationalism and Jewish Ethic, p. 77 (٢٥)

Ibid., pp. 74 - 5 (٢٦)

Ibid., p. 77 (٢٧)

ليبقى شعوره القومي في أرض الشتات و يعود اليه استقلاله الفكري واحترامه لذاته (٢٨). وليتم تحقيق هذا الهدف فإن أحد هاعام رأى أن اليهودية لا تحتاج في تلك المرحلة الى دولة مستقبلية بل تحتاج فقط الى توفير ظروف مواتية لنموها كتلك التي كانت في العصور القديمة (٢٩)، تهىء لها المجال لانشاء استيطان يهودي بحجم مناسب يعمل دون عائق في شتى فروع المدنية، من أعمال زراعية ومهن يدوية الى علوم طبيعية وعلوم انسانية.

وهكذا عرض أحد هاعام المشكلة على أنها ليست مشكلة اليهود كما صورها الصهاينة السياسيون، ولكنها مشكلة اليهودية والدولة التي رأى أحد هاعام امكانية إيجادها في النهاية كدولة يهودية Jüdischer Staat لا كدولة لليهود Judenstaat كما طرحها هرتزل. وحينما تظهر الدولة اليهودية في نهاية المطاف تصبح هوية تعريف بالنسبة لجميع اليهود المنتشرين في العالم (٣٠). ونظراً للاطار القومي الذي يحيط بالتطور الثقافي الحديث في أوروبا فان نهضة الثقافة اليهودية في الشتات لم تعد من الأمور الممكنة. ولذلك لابد لاستمرار وجود الهوية القومية اليهودية خارج فلسطين من وجود مجتمع يهودي في فلسطين يشع ثقافته نحو الشتات. ان الصهيونية السياسية التي تركز حصراً على انشاء دولة لليهود تتجاهل هذا البعد الثقافي الذي هو أمر حيوي بالنسبة للوجود اليهودي المستمر. والدولة اليهودية المجردة من القيم اليهودية ذات الصلة الوثيقة بالحياة اليهودية في الشتات سوف تفقد ولاء اليهود الذين يقيمون خارج الدولة. لذلك فان أحد هاعام انتقد بشدة رؤية هرتزل للدولة اليهودية التي يتكلم فيها كل شخص اما الالمانية أو الفرنسية أو الروسية حسب بلده الاصلي. وتناول أحد هاعام هذا الموضوع مشيراً الى أن دولة من الالمان والفرنسيين المنتمين الى العرق اليهودي ليست دولة قابلة للحياة، لأن «الهدف السياسي الذي لا يعتمد على ثقافتنا القومية بمقدوره أن يبعدها بأغراءاته عن انتمائنا للعظمة الروحية و يدفعنا الى أن نسعى وراء المجد عن طريق القوة المادية والسلطة السياسية قاطعاً بذلك كل ما يصلنا بالماضي و يربطنا بأسسنا التاريخية» (٣١). وحذر أحد هاعام من أن تتحول القوة أو السلطة السياسية الى هدف في حد ذاته، الأمر الذي سيقطع الروابط مع اليهود في الخارج. وفي

Avineri, p. 117 (٢٨)

Ahad Ha-Am "The Jewish State and the Jewish Problem", Zionist Idea, p. 264 (٢٩)

Avineri, p. 117 (٣٠)

Nationalism and the Jewish Ethic, p. 80 (٣١)

مثال تاريخي توضيحي لا يخلو من الدهاء أورد أحد هاعام دولة هيرودس الكبير مثالا على الدولة الخالية من المحتوى الروحي والثقافي، اذ قال: «... يعلمنا التاريخ أنه أثناء حكم أسرة هيرودس كانت فلسطين دولة يهودية، ولكن الثقافة الوطنية كانت مزدرة ومضطهدة. كما أن الاسرة الحاكمة كانت تعمل كل ما في وسعها لادخال الحضارة الرومانية الى البلاد، وبددت موارد البلاد في بناء معابد وثنية وهياكل ومدرجات وما الى ذلك. ان دولة يهودية مثل تلك لا بد وأن تجر التحقير والموت لشعبنا ولا يمكن لمثل هذه الدولة أن تحقق قوة سياسية تستحق الاحترام» (٣٢).

وفي معرض توضيحه لآرائه حول ضرورة المحتوى الروحي للوجود اليهودي، أشار أحد هاعام الى أن هذه الآراء ليست مجرد متطلب تكتيكي أو ذرائعي وإنما هي مرتبطة «بفهم عميق للتاريخ اليهودي» وهو فهم كان متأثراً الى حد كبير بآراء كل من كروخمال Krochmal وجرايتز Graetz. وفي مقالته «الجسد والروح» Flesh and Spirit طرح أحد هاعام هذه الآراء من منظور تاريخي رأى في اليهودية عنصرين: مادي وروحي. فترة الهيكل الاول (الفترة الواقعة بين حكم الملك سليمان الحكيم حتى تدمير الهيكل عام ٥٨٦ ق.م) كان هذان العنصران — اللذان يطلق عليهما أيضا العنصر السياسي والعنصر المثالي — لا يزالان متشابكين معا، ولم يتم الفصل بينهما الا في فترة الهيكل الثاني (الفترة الممتدة من عام ٥٢٠ ق.م عند بناء الهيكل الثاني حتى تدميره في عام ٧٠ م على يد الرومان في عهد تيطس). ورأى أحد هاعام في الصراعات التاريخية بين الصدوقيين Sadducees والفريسيين Pharisees على أنها صراعات تتمحور حول هذين المظهرين من مظاهر الحياة اليهودية. فقد رأى الصدوقيون في مجرد وجود الدولة اليهودية العنصر الاساسي في الحياة القومية. أما الفريسيون فقد رأوا في المحتوى الروحي الاساس الذي يقوم عليه الوجود اليهودي، وكانوا مستعدين لتقديم تنازلات واسعة النطاق للرومان ما دامت هذه التنازلات لا تهدد بالخطر الكيان القومي كما عبرت عنه القدرة على تنمية المحتوى الروحي لليهودية. ووفقا لما قاله أحد هاعام فإن الفريسيين كانوا يمثلون الجمع الحقيقي بين ما هو مادي وما هو روحي، ومن ثم فقد نظر الى دفاعهم الجدلي عن السلطة السياسية على أنه أداة ضرورية ولكنه ليس غاية في حد ذاتها (٣٣). وما أورد بهذا الصدد:

Ibid., pp. 80 - 1 (٣٢)

Aveniri. p. 119 (٣٣)

«بخلاف الاسينيين Essenes لم يهرب الفريسيون من معترك الحياة ، ولم يرغبوا في تقويض بناء الدولة ، بل على العكس ، فانهم صمدوا في صميم معركة الحياة ، وحاولوا أقصى استطاعتهم انقاذ الدولة من الانحلال الخلقي وصياغتها في قالب ينسجم مع روح اليهودية . وكانوا يعرفون جيدا أن الروح بلا جسد ظل وهمي ليس الا ، وأن روح اليهودية لا يمكن أن تنمو وتحقق غاياتها دون جسد سياسي تستطيع أن تجد فيها مجالا للتعبير المادي عن ذاتها . ولهذا السبب كان الفريسيون يخوضون دائماً معركة مزدوجة : اذ كانوا يعارضون الماديين السياسيين من الداخل والذين كانت الدولة عندهم لا تعدو كونها جسماً دون روح جوهرية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانوا يحاربون جنباً الى جنب مع هؤلاء الخصوم ضد العدو في الخارج وذلك لانقاذ الدولة من الدمار» (٣٤).

وجاء تدمير الرومان للهيكل الثاني ليضع وجهة نظر الفريسيين أمام تجربة بالغة الخطورة ، لأنها أثبتت قدرة اليهودية — على حد تعبير أحد هاعام — على الاستمرار في الوجود دون البنية التحتية المادية للكيان السياسي ، غير أن الماديين السياسيين الذين كان وجود الدولة يمثل بالنسبة لهم كل شيء لم يكن لديهم ما يعيشون من أجله بعد حلول الكارثة السياسية (بتدمير الرومان للهيكل) . ولذلك حاربوا من أجلها ما بوسعهم حتى سقطوا أمواتاً . غير أن الفريسيين ظلوا على ايمانهم لأن اهتمامهم بالدولة كان فقط من أجل الروح القومية للأمة ... لذلك لم يكن فناء الدولة في نظرهم فناء للأمة ولكل ما فيها من قيم . وعلى العكس من ذلك فانهم شعروا الآن بضرورة قصوى لايجاد وسيلة مؤقتة للحفاظ على الأمة وروحها ولوبدون دولة ... وهكذا انقطعت الصلة ، فبقي السياسيون المتطرفون حاملين سيوفهم بأيديهم على أسوار القدس بينما حمل الفريسيون توراتهم والتجأوا الى بينه Javneh (مدينة فلسطينية قديمة تقع على ساحل البحر المتوسط شمال أسدود بحوالي ثمانية كيلومترات) . وهكذا أصبحت بينه المركز الجديد للتعاليم اليهودية مركزاً جديداً شبه سياسي للوجود اليهودي رغم فقدان الاستقلال السياسي . وقد استمر أحد هاعام في تحليله لهذه الظاهرة بقوله : «لقد أثمر عمل الفريسيين . فنجحوا في خلق كيان قومي دون أن يكون له جذور في الارض . وفي هذا الكيان اختزنت الروح القومية العبرية ... ومن هنا جاء تنظيم الجيتو الذي وضع أساسه في أعقاب تدمير القدس مباشرة ... وكان هذا التنظيم

بمشابة كيان اصطناعي مؤقت الى أن تتمكن الامة مرة أخرى من إيجاد مأوى لروحها في كيان سياسي مستقل وموحد. وقد تمكن الفريسيون من تحقيق ذلك بطريقة الاستيطان في مراكز صغيرة متفرقة مبنية جميعها على نمط واحد يعيش فيها كل اليهود نوعا واحدا من الحياة بالرغم من تفرقهم الجغرافي متطلعين الى هدف واحد هو الاتحاد في المستقبل» (٣٥).

وقد رأى أحد هاعام أن القيام الآن بتأسيس وطن سياسي على قاعدة مادية أو صدوقية — أي دون محتوى روحي — سيكون ذلك — حسب رأيه — معاكسا للتطور اليهودي وللتطور التاريخي العام. لأنه بالنسبة لأحد هاعام، وتبعاً لما تقوله المدرسة الهيكلية، ليست الدولة غاية في حد ذاتها، بل انها لا تعدو كونها الاساس الضروري للتعبير الروحي عن الروح القومية (٣٦).

أحد هاعام وأحباء صهيون :

ظهرت انتقادات أحد هاعام لجمعية أحباء صهيون في أعقاب زيارته الاولى لفلسطين عام ١٨٩٠. فقد ركز على أن هذه الجمعيات التي كانت تقول العديد من المستوطنات اليهودية في فلسطين، لم تستوعب كامل أبعاد المهمة الاستيطانية التي أخذت على عاتقها تنفيذها في تلك البلاد. فما تم انجازه من مستوطنات حتى نهاية القرن الماضي تم تنفيذه بأسلوب متخلف افتقر الى الوازع القومي الذي كان سائداً بشكل قوي ولافت للنظرين الأمم والشعوب الاخرى. والسبب في ذلك كما أوضحه أحد هاعام كان يعود الى أن اليهود لا يكونون أمة حقيقية وأن كل ما يربطهم هو الدين فقط. كما قال انه لا صحة لما يشاع بأن مشروع أحباء صهيون الاستيطاني أخفق بسبب أخطاء البارون روتشيلد وأعدائه من الحاخامات وغيرهم. ان السر في الاخفاق يكمن في أن رواد الحركة الاستيطانية كانوا في عجلة من أمرهم «فتخلوا عن الطريق الطويل للتطور الطبيعي وتمكنوا بأساليب مصطنعة من طرح فكرة فنية غضة الالهاب على عالم الواقع قبل أن تنضج تلك الفكرة وقبل أن يتم نمو قواها بصورة ملائمة» (٣٧). ومما نقد به أحد هاعام زعماء أحباء صهيون أنهم توجهوا

Ibid. (٣٥)

Avineri, p. 121 (٣٦)

Vital, The Origins of Zionism, p. 192 (٣٧)

بنداءاتهم الى المصالح الفردية والخاصة والصالح الفردي لليهود بدلا من مصلحة المجموع بأسره . اذ «لا يمكن اقامة مجتمع جيد البناء أو مشروع جماعي عظيم على أساس من المصلحة الخاصة وحدها» (٣٨). ومضى أحد هاعام في تحديده لأولى مهام هؤلاء الزعماء فأشار الى أنها جدية العمل من أجل بعث وعي قومي بين المستوطنين اليهود وتخليصهم من نتائج القيود والعادات التي اكتسبوها في «الشتات» مهما صعب هذا العمل ومهما طال أمد ذلك (٣٩).

وكان ما رآه أحد هاعام بالفعل لدى زيارته المستوطنات اليهودية في فلسطين قد عمق من شكوكه حول استراتيجية الحركة الاستيطانية (٤٠). وأكد من ارتيابه أنه حتى على مستوى الأمور العملية ، وهو المستوى الذي كان يعتقد أنه أقل أهمية من العقيدة ، كان المشروع أكثر تعقيدا والعقبات التي تحول دون تحقيقه كانت أضخم حجما وأكثر عددا مما تصوره القائمون على الحركة والممولون لها (٤١). وقد رأى أحد هاعام أن نجاح هذا المشروع مرهون باقامة «استيطان يهودي جماعي قائم على فلاحه الارض ... يستطيع اليهودي فيه ترتيب حياته بطريقته الخاصة وروحه القومية بالذات» (٤٢). أما بالنسبة للعقبات التي كانت تحول دون تحقيق ذلك فقد لخصها أحد هاعام بنوعين: عقبات خارجية وعقبات داخلية.

أما العقبات الخارجية التي وقفت أمام الاهداف القومية اليهودية فقد كانت هائلة . وكانت أولى العقبات كما أعتقد أحد هاعام صعوبة الحصول على أراض صالحة للزراعة ولم تتم فلاحتها من قبل . وأما الارض المفتوحة فقد كان من المستحيل شراؤها . وأما الارض التي كان ممكنا شراؤها فقد كانت في رأيه اما تفتقر كلية الى الخصوبة أو كان لابد من تنظيفها أولا وبتكاليف باهظة من حيث العمل والاموال ، وحتى في تلك الحالة فانها كانت ذات فائدة محدودة : فقد تصلح لزراعة الاشجار والكرمة ، ولكن ليس للمحاصيل الحقلية.

Ibid. (٣٨)

Ibid., p. 193 (٣٩)

Ibid. (٤٠)

Ibid. (٤١)

Ibid., p. 195 (٤٢)

أما العقبة الثانية والاكبر حجماً بالنسبة للاستيطان اليهودي فكانت السكان العرب أنفسهم. لم يعر اليهود في خارج فلسطين اهتماماً ذا بال للعرب في داخلها، وافترضوا أنهم (أي العرب) غير قادرين على فهم ما يجري حولهم. وطالب أحد هاعام بموقف واقعي تجاه السكان العرب في البلاد. وحذر من أن الموقف الاستعلائي تجاه العرب وثقافتهم سيؤدي الى تفاقم سوء العلاقات بين «الطائفتين». ولن تفلح الصهيونية في تطوير الأدوات اللازمة للتعامل بفعالية مع الأمور التي تواجهها الا بأدراكها لحقيقة الموقف. وكان مما قاله في هذا الصدد:

«نحن نميل في الخارج الى الاعتقاد أن العرب من برابرة الصحراء وأنهم جماعة من المغفلين الذين لا يرون أو يفهمون ما يدور حولهم. وهذه غلطة كبرى. فالعرب مثلهم في ذلك مثل جميع الساميين يتمتعون بذكاء حاد وقدر وافر من الذكاء. والعرب ولا سيما سكان المدن فهم يفهمون كل الفهم ما نريد وما ننوي أن نفعل في البلاد ولكنهم يتظاهرون بأنهم لم يلاحظوا ذلك لأنهم في الوقت الحاضر لا يرون أي خطر مستقبلي يهددهم في أي عمل نقوم به. ولكن اذا ما جاء وقت نكون فيه قد طورنا حياتنا في أرض اسرائيل الى حد نحاول فيه ازاحة السكان المحليين جانبا قليلاً أو كثيراً، فانهم لن يتخلوا عن مواقعهم بسهولة» (٤٣).

كما حذر أحد هاعام من السلوك العنيف أو المهين تجاه السكان العرب. فقد كتب معلقاً على ذلك: «من المؤكد أن هناك شيئاً واحداً كان علينا أن نتعلمه من تاريخنا الماضي والحاضر وهو عدم اثاره غضب السكان المحليين ضدنا. علينا أن نتقرب منهم ونتودد اليهم. ولكن ما الذي يفعله اخواننا المستوطنون هناك؟ انه العكس تماماً. لقد كانوا عبيدا في بلاد المنفى وفجأة وجدوا أنفسهم في جو من الحرية غير المحدودة والفوضوية الشديدة كما هو الحال دائماً مع العبد الذي أصبح ملكاً. فسلوكوا تجاه العرب مسلك العداء والقسوة. انهم يتعدون على حدودهم و يضر بونهم بصورة مخزية دون سبب بل و يتباهون بذلك. ان اخواننا على حق عندما يقولون إنَّ العربي لا يحترم الا أولئك الذين يبدون القوة والشجاعة، ولكن هذا صحيح فقط عندما يشعر العربي أن الجانب الآخر لديه قضية عادلة. ولكن الأمر

يختلف كثيراً عندما يعتقد العربي أن أعمال خصمه بعيدة عن العدالة والقانون. في هذه الحالة قد يحتزن غضبه داخل نفسه لفترة طويلة، ولكن ذلك سيتدبر في قلبه، وعلى المدى البعيد سيثبت أنه تواق الى الانتقام وان نفسه حافلة بمشاعر الثأر» (٤٤).

كما حذر أحد هاعام من بوادر ظهور حركة قومية عربية في فلسطين تهدد وجود المستوطنات اليهودية فيها. وقد أبدى حساسية بالغة للابعد المأساوية التي ينطوي عليها «صدام محتمل بين الحركتين القوميتين: العربية والصهيونية» على الساحة الفلسطينية. وفي معرض اشارته الى هذا الموضوع، قال أحد هاعام: «... نحن في الخارج نيل الى الاعتقاد أن فلسطين في هذه الأيام بلاد تكاد تكون مهجورة وأنها فقر غير مفتاح، وأن في وسع أي انسان الذهاب الى هناك وشراء أي مقدار من الارض يريده. بيد أن الواقع ليس هكذا، اذ من الصعب العثور على أية بقعة بور في الارض العربية أما الاراضي الوحيدة غير المزروعة فهي كثبان الرمال والجبال الصخرية التي لا يمكن زراعتها الا بالأشجار. وحتى هذا لا يمكن تحقيقه الا بعد بذل الجهد الهائل والأموال الطائلة التي تستثمر في تنظيف الارض واعدادها» (٤٥).

والا تترك هم العقبة الثالثة في رأي أحد هاعام. وهنا — على حد تعبيره — يخطيء اليهود مرة أخرى اذا ظنوا أن الباب العالي ضعيف وسيء التنظيم لدرجة تجعله لا يشعر أولاً يهتم بما يجري في أرض فلسطين، وان الرشوة ستحل جميع العقد وأن الدول الاوروبية ستحميهم «لا مراة في أن البخشيش»، كما قال أحد هاعام: «كان ذا قوة عظيمة في تركيا، وأن أعظم رجالات تلك البلاد كانوا عاجزين عن مقاومة اغراءاته»، لكنهم على الأقل من الزاوية الدينية عندهم، وبسبب اهتمامهم بالأراضي المقدسة وسلطانهم عليها، فانهم سينفذون واجبههم بأمانة واخلاص، ولا يجب الاستهانة بقوة مشاعرهم. وبناء على ذلك فلن يستطيع شيء التأثير عليهم. وهم يعارضون بصورة مطلقة استيطان اليهود في فلسطين. وكلما ازداد عدد اليهود المستوطنين فيها ازدادت معارضتهم تبعاً لذلك. كما أشار

Ahad Ha - Am, Complete Works (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1946), p. 23 (٤٤)

Ibid. (٤٥)

أحد هاعام الى أن الافراط في الاعتماد على القناصل الاوروبيين سيعطي نتائج عكسية (٤٦).

وكان واضحاً أنه اذا كان لابد من حل المشكلات التي تواجه العملية الاستيطانية فالواجب — كما رأى أحد هاعام — اتباع منحى يتسم بالحذر والتنظيم وحسن التخطيط ويستهدف النوعية أكثر من الكمية ويستند على دروس مستفادة من التجارب ومبادئ الاقتصاد السليمة لا على خطط منافية للمنطق سعياً وراء ثراء سريع وحياة رغدة. لقد تم انشاء المستوطنات بتسرع ودون نظام، وتم استقدام أشخاص يفتقرون الى الخبرة الزراعية، وكانت تملأ رؤوسهم معلومات خاطئة عن الهدف من قدومهم الى فلسطين. وأشار أحد هاعام الى أنه لم يلتق بأحد منهم كان يعيش من دخله الخاص فقط أو كان يتقن الزراعة أو يعيشها. ولذلك كان من العيب أن يتوقع المرء منهم كبير فائدة. واذا لم يكن هناك تغيير، فان النتيجة الوحيدة ستكون خلق مشكلة يهودية في مكان لم تكن موجودة فيه من قبل. ولذا فان مسؤولية قادة أحباء صهيون — كما قال أحد هاعام — اجتذاب الاشخاص «ذوي الكفاءة» وابعاد الاشخاص «غير الكفاء» «فيميزون بذلك بين الذين يتحلون بالقدرات الجسدية والاخلاقية» وبأدارة العمل الشاق والاكتفاء بالقليل من أولئك الذين كانوا يفتقرون الى هذه الخلال (٤٧).

أما العقبات الخارجية أمام الاستيطان الواسع النطاق، فلم يكن باستطاعة اليهود مقاومتها خلال المستقبل المنظور على الأقل. ولكن على أية حال فان اليهود أنفسهم لم يكونوا حتى الآن قد تهيأوا اجتماعياً وخلقياً أو معنوياً من أجل القيام بالمهمة التي تنتظرهم. اذ لابد من السير «في الطريق الطويل الصعب للتطور الطبيعي». ولا بد من تحديد الهدف الاستيطاني الامثل بحيث لا يكون «لحشد الناس ولكن للتعبئة أو الحشد الروحي الذي يقتضي أن يسبق ذلك». واذا ما كانت البلاد أصغر وأقصر من تحقيق الهدف الأول (حشد أو تجميع الناس) فانها ليست أصغر من أن تحقق الهدف الثاني (التعبئة أو الحشد الروحي). «فمستوطنة واحدة جيدة التنظيم وقادرة على استثارة حب اليهود

Ibid., p. 24 (٤٦)

(٤٧) . لقد تركت هذه الآراء بصماتها على زعماء الحركة الصهيونية فيما بعد. اذ أخذت الوكالة اليهودية — على سبيل المثال — لا تقبل مهاجرين يهود الى فلسطين الا الى سن معين لا يتجاوز ٤٥ عاماً.

للأرض أفضل من عشر مستوطنات مهلهلة متداعية لا يبرر وجودها سوى حبنا
للأرض» (٤٨).

وقصارى القول فأن الكيان الاستيطاني (اليشوف) يجب أن يكون «مركزاً روحياً»
وورشة نموذجية يصار فيها الى تصنيع اعادة احياء الشعب اليهودي ويخرج منها نفوذ جديد
صحى نابع من القدوة الحسنة والتعاليم المرنّة. هذا ما كان المطلوب وهذا ما يجب عمله.
وهذا أقرب الأمور صلة بالطابع الأساسي لليهودية.

* * * * *

يتضح مما تقدم أن أحد هاعام في كتاباته حول الصهيونية والاستيطان استطاع أن يحدد
بدقة وفي مرحلة مبكرة جدا العديد من المشكلات العملية التي قدر لها تعكير مسار تطور
الحركة الصهيونية. أما غالبية المفكرين الصهاينة فأن اهتمامهم بالأمر الروحية والفكرية
كان محدودا. بل على العكس، فقد كان معظمهم منخرطا في تيار النظرة المادية للحياة،
وأعاروا آذاناً صماء «لأناشيد الكبرياء والعظمة العبرية الداخلية» التي أطلقها أحد
هاعام. ورأى مفكرون أمثال ليلينبلوم وليونسكو وسمولينسكين أن اقامة دولة لليهود لا
يتطلب سوى اتفاق عدد قليل من الساسة، في حين أن نفخ روح جديدة بين اليهود (كما
أرادها أحد هاعام) يحتاج الى جهد ملايين الناس. وقد عارض هؤلاء المفكرون التفسير
الذي قدمه أحد هاعام لمفهوم الدولة اليهودية ونادوا بضرورة انشاء دولة بأي شكل حتى ولو
لم تكن الدولة المنشودة في قوة انجلترا أو ألمانيا، ولا ضير في أن تكون دولة صغيرة، اذ أن
دولة صغيرة — في رأيهم — أفضل من أن لا تكون لهم دولة البتة.

لقد تبنى أحد هاعام خطأ فلسفيا سياسياً واجه المشكلات العملية ببعد روحي ثقافي. وهذه
الرؤية هي التي جعلت وصف أحد هاعام للمشكلات التي واجهت الاستيطان الصهيوني
بالأمس وتواجه الاستيطان الاسرائيلي اليوم، وصفا يتسم بالدقة ويحمل في طياته التنبؤ
بمستقبل محفوف بالأخطار. لقد اتهم هرتزل أحد هاعام بالتنظير الخيالي المجرد من الواقعية
وأن تبني استراتيجيته سيؤخر قيام الدولة اليهودية مدة تسعمائة عام على الأقل. وكان رد
أحد هاعام بأن اقامة دولة يهودية مستقرة الجذور بعد تسعمائة عام أفضل من اقامة دولة
يهودية بعد خمسين عاما على أرضية من الرمال المتحركة.

المصادر والمراجع

اعتمدت الدراسة بشكل رئيسي على المصادر التالية:

- Ahad Ha - Am: Ten Eassays on Zionism and Judaism. New York: Arno Press, Inc., 1973.
- Ahad Ha - Am. Complete Works. Philadelphia: Jewish Publication Society, 1946.
- ————— Essays, Letters, Memoirs. London: East and west Library, 1946.
- Nationalism and the Jewish Ethic: Basic Writings of Ahad Ha - Am. New York: Schocken Books, Inc., 1962.
- Selected Essay of Ahad Ha - Am. New York: Meridian Books. 1962.

مصادر أخرى:

بالعربية:

- ليون، ابراهام، المفهوم المادي للمسألة اليهودية. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٠.
- محمود، أمين. مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٤.
- المسيري، عبد الوهاب. موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية. القاهرة: الاهرام، ١٩٧٥.

بالانجليزية:

- Alter, Robert. After the Tradition: Essays on Modern Jewish Writings. New York: E.P. Dutton & Co., Inc., 1971.
- Avineri, Shlomo. The Making of Modern Zionism. New York: Basic Books, Inc., 1981.

- Baron, Salo. A Social and Religious History of the Jews. Vol. 5. New York: Columbia University Press, 1952.
- Dunbow, Simon. Nationalism and History: Essays on old and New Judaism. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1958.
- Encyclopedia Judaica. Vol. 1. Jerusalem: Keter Publishing House, Ltd., 1972.
- Hertzberg, Arthur. The Zionist Idea. New York: Atheneum, 1970.
- Sachar, Howard. The Course of Modern Jewish History. New York: Alferd A. Knopf, Inc., 1958
- Seltzer, Robert. Jewish People, Jewish Thought. New York: Macmillan, 1980
- Simon, Leon. Ahad Ha - Am, Asher Ginsberg: A Biography. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1960
- Vital, David. The Origins of Zionism. Oxford: Oxford University Press, 1975.
- ————. Zionism: The Formative Years. Oxford: Oxford University Press, 1982.